حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الرابع

تاجور فى الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

لمحمود المنجوري

تاجور في الحياة والاخلاق

والمدنية والسياسة والمرأة والادب والدين

لمحمود المنجوري

عندما طال بي الفصل السابق ، استقصي فيه مذاهب تاجور في مدرسته آثرت ان أفرد فصلاً خاصاً لآراء تاجور في الحياة والاخلاق والاجتماع والسياسة ، والاسرة والادب والدين ، واني وان كنت اعتقد ان هذه الآراء انما هي احدى مقومات مدرسة تاجور ، الا اني أردت أن أشرك القارىء في مطالعاتي لكتب تاجور المختلفة وان اسجل ما استوقفني فيها من آراء قد تتصل بما سبق ان أشرت اليه في الفصل السابق وقد لا تتصل في شيء

***

لا يستطيع تاجور في بحوثه المتصلة بالحياة أن يتجرد من طابع الفلسفة ، لانه يؤمن بان الفلسفة انما هي جزء عملي من الحياة نفسها ، وان واجب الفرد وواجب الجماعات يقوم في تطبيق الآراء الفلسفية على الحياة اليومية ، وعلى ما يصدر من الفرد والجماعات من تفكير وعمل وحركة . فتاجور يريد أن يخرج الفلسفة عن نطاق البحث النظري الى التطبيق العملي في صميم الحياة البشرية . هو يؤمن أشد الايمان بان الحياة تتكون من الاضداد مجتمعة متساندة ، وانها الايجاب والسلب ، والحركة والسكون ، والعدل والظلم ، والروح والمادة ، والخير والشر ، وان الحدود الفاصلة بين كل من هذه الاضداد ، هي طريق الوصول بالانسان الى المعرفة والحق والجمال ، فهو يؤمن بوجود الشر في الحياة كما يؤمن بوجود الخير فيها ، ويسأل لماذا كان الشر في الحياة[1] لماذا كان النقص فيها ؟ انه يقول : —

« إن هذا السؤال معناه سؤال آخر لماذا كانت الحياة نفسها ؟ »

ولكنه يجيب فيقول : —

« يجب ان تقبل الحياة على علاتها ، وعلى أنها لا يمكن ان تكون على غير ما هي عليه ، وانها لا يمكن إلا ان تكون ناقصة . انها تعبر دائماً الى الكمال المطلق »

---

(١) مسألة الشر The Problem of Evil الفصل الثالث من كتاب سدهانا

هو مؤمن بالحياة غير ملحد بها

« من الخطل ان نسأل لماذا جئنا الى هذه الحياة ؟ إن ما يجب ان نسأله هو : هل هذا النقص هو الحياة ذاتها ، ام هو الحقيقة المطلقة ؟ وهل الشر مطلق لا نهاية لحصره ؟ »

ولكن تاجور يجيب اجابة طريفة فيقول : —

« إن للنهر شواطئ وحدوداً تدبر له كيانه ، ولكن ليس النهر هو هذه الشواطئ ، وتلك الحدود ولكنها الوسيلة التي تحدده وتجعله نهراً له حوض ووجود ، بل ان هذه الشواطئ والحدود هي التي تمد ماء النهر بالقوة والحركة والتقدم . ان القوارب في النهر تساق بالحبال ، ولكن أفي هذا معنى لثقل والعبودية أم يمكن من قوة هذه الحبال ان تقود القارب الى الامام ؟

ان تيار الوجود محدود ، وإلا لما جاز وجوده ان لم يكن محدوداً ، على ان الغرض من الوجود ليس ظاهراً في هذه الحدود التي تحدده ، ولكن الغرض من الوجود يظهر في حركة تياره ودأبه نحو الكمال وليس من العجب ان تعترض الحياة الآلام والمتاعب والشرور ، ولكن العجب أن تفتقد الحياة السنن والنظم والحدود المتساوقة بين الاضداد

تاريخ العلوم هو تاريخ لاخطاء الذهن البشري في عصوره المختلفة ، وإلا فكيف نستطيع ان نسمي العلم علماً اذا لم يصطدم الذهن بعوامل الركود والجهل ، ولكن سمو العقل لا يكون بتدارك الاخطاء واكتشاف العلوم ، وسموه انما يكون في تقدمه المستمر نحو الحقيقة المطلقة ، فاجتياز العلوم سبيل الحقيقة هو المثل الأعلى في الحياة

ومثل الشر في الحياة الى الخير ، كالخطأ او الجهل الى العلم ، مآله الى الزوال النسبي ، ولكنه قد يتجدد في صور أخرى ، لان الشر لا يمكن أن يصمد لمجموع الحياة ، وعمل الحياة انما هو اصلاح مستمر للاخطاء والشرور وتقويم لها يتجدد ، والشر يبرز الحياة ويجعلها ملموسة في كيان ، ويبعث فيها القوة والتيار والدفع كما تبعث الشواطئ والحدود في مياه الانهار القوة والتيار والحركة ، وكما تدبر من الماء المنساب حوضاً ملموساً له كيان متحرك دائب الجريان

على ان الشر وان كان حقيقة ، فاننا لنذهب بعيداً اذا حسبناه مدعماً ثابت الاركان . . . ان الشر دائب الحركة والتنقل وهو على اتساع أثره لا يقوى على ان يعوق سبيل حياتنا . فهو احدى آثار الموت والفناء في حلقة واحدة هي العدد والاحصاء ، ولكنها ما زالت تجد الحياة تقاوم الفناء وتتغلب . فالارض والهواء والماء كل شيء تبقيه الكائنات على الرغم من يد الفناء الدائرة بمنجلها في الرؤوس والرقاب . انه ليروعنا ان نفكر في الشر لانه جاثم بأثقاله على حياتنا . ولكن الحياة تهزأ به على الرغم من ذلك . انه يدلل بنا في عدده وحصره ولكنه في تقديره كمثل تقدير من يستخرج ثقل الهواء على قدر قليل من مساحة أجسامنا ليبرز لنا وزناً يثبت به ان الثقل على اجسامنا ساحق لا يطاق . ولكن الحقيقة ان لكل ثقل ما يقابله مقاومة ويدعمه تكافؤاً . وهذا يخفف الاثقال ، ويقيم التعادل بين الاضداد . والتوزع على البقاء تكافؤ وتعادل تأنس اليه النفس البشرية في محيط وعطف على الاصدقاء ، وربما يصدر عن الخير كعنصر فعال في البذل والتضحية وعدم الاثرة

والوجه البغيض من الحياة ان يكون فيها موت ، ولكن لو أننا عكفنا بأنفسنا باحثين عن حقيقة الموت لبانت لنا الدنيا متجردة من أرجاء من الحياة ، ولكن الرأي سيطالبنا بان ان الموت في هذه الحياة أضعف من أن يأخذ الطريق على تفكيرنا وآمالنا ، وليس هذا براجع الى ان الموت حدث قليل الوقوع ، ولكن الى ان الموت هو الوجه المقابل للحياة ، وحربه عليها دليل على وجودها وبقائها ، وتصيرنا ويكشف عن الثبات والتمام . إن مثل الموت كمثل ترديد العين بنفس جفنيها في اللحظات المتواليات ، ومع هذا فانه لا ترى ان يصرعه لا يصيرها . ان يقلبها الجفن ويحجب عنها الضوء بين لحظة واخرى . على ان هذا الجفن لوقاية للابصار وحماية للعين التي لا تستطيع ان تحتمل الضوء المتصل . فالحياة في جملتها لا تهتم بالموت وزنة ، فهي ما زالت تتعهد بجهدها وتقف ، هي ما تزال تضحك وترقص ، لاهية لاهية ، عادية صدودة ، بل هي ما تزال تحب في مواجهة الموت نفسه

حتى ان الأمر يصدمنا حقاً عندما نحس بنكبة الموت (١) بفقد عزيز علينا ، عندئذ نرى سواد الحياة يغشى تفكيرنا وآمالنا ، حتى لتفقد معنى القيمة فيتعاظم علينا الأمر ، ونقصر دون ادراك الحياة . ونقصر عن الايمان بأن الموت انما هو طور من أطوار الحياة . إن شأننا ، عندما يدهمنا الموت بجلاله ، كشأن من ينظر الى قطعة من النسيج من وراء مجهر مكبر فيحسبها شبكة دقيقة بالخطوط . فيهوله الخراب ويخطئه النظر ولكن الحق ليس كذلك ، فالموت ليس بشر ولا هو بالأمر التام كما يبدو ، ان زرقة السماء ليست بلون حقيقي ، إنها لا تتراءى من زرقتها على أجنحة الطيور ، فلماذا نسوّد وجوهنا يوم يحيينا الموت ؟

وليس الموت بقاتل بهيج الحياة ولما كانت كنوزات الحياة لا تحصى ، فنحن لا نحصي فشل الطفل الذي يحاول المشي ، ولكن نحصي عليه ما يصيبه من نجاح قليل ، فالطفل يكبو ثم يكبو ، ولكن على الرغم من اخفاقه فانه يلمس في نفسه سروراً متدفقاً فيصمد أمام عمل يلوح له أن ادراكه مستحيل ، وهو لا يفكر في كبواته بقدر ما يفكر في القوة التي يحفظ بها ميزان خطوه ولو مرة واحدة . إن مثل هذه الكبوات تعترض سبيل الطفل وهو يحاول المشي كمثل المتاعب التي تعترض حياتنا كل يوم . وان هذه الكبوات لتبدي ضعفنا وقصر تفكيرنا بحقائق الأمور وتبرز ضعف إرادتنا وعجز ما لدينا من قوى نسخرها لنصل بها الى ما نبغي . إن هذه الكبوات يجب ان تكون إذ تجاربه الحياة القيمة فلا ينبغي ان تثير في نفوسنا يأساً ولا كمداً بل يجب ان تخلق فينا شيئاً جديداً يبعثنا على ان نحفظ توازننا ولو مرة واحدة كما يفعل الطفل الذي يكبو وهو لا يفكر في كبواته بقدر ما يفكر بما تدفعه اليه الحياة لا تسكن النفس دائماً . فنحسها ليس إلا وهماً يشد الضمير ويطفئ الروح ويحدد مسالك التفكير ، بينما الحياة تريد ان تأخذ بأيدينا وان تقودنا دون ارادتنا لأن نسلك سبلاً أكثر فسحة وأرحب مجالاً سعياً وراء الكمال — وان الآمال لتنتقل أمامنا دائماً كالطير يفر منا كلما اقتربنا منه طار قليلاً ليهبط دائماً أمامنا ، فهو لا يفارقنا الى غير رجعة ، ولكنه يغرينا دائماً ونحن في أثره نتبعه . هذا الأمل هو العقيدة في الحياة ، هو الإيمان الدائم في نفوسنا ، هذا الأمل هو روح الحق وسر هذا الوجود وبقاؤه . ولكننا ندركه ونسعد بالبحث عنه كما سنسعد بلقائه في النهاية

ولا يمكن للشر أن يقبض على زمام الحياة وان اعترض طريقها المعبد ، ولا يمكن له ان يصيبها شيئاً من جوهرها وحقيقتها وان أصاب سبلاً في طريقها ، فاذا كان الشر يتأثر ويشبه أيما وجد هذا الشر ، والحياة دائماً غلابة ، وليس للشر أن يصمد لها فيهون علينا حربه في مجموعها ، ولنا نحول اقرأ استقر أضعف الشرور أثراً في صدر هذه الارض ولو برهة واحدة ، إذن تسلك الى جوف الحياة ومكث في باطنها واجتث جذورها من الأصول — ولكن أنى للشر ان يصل الى هذا لان الانسان لا يعتقد في الشر عقيدة صادقة مؤكدة . وراءه في الحياة كالقمم الشاذ المتفرق من وتر القيثار ، فاذا أحسسنا على القيثار أنغاماً عذبة لا تعجزنا العثرة ومع هذا فانا نؤخذ بما تأتي به القيثار من نغم حزين ونلف منسجم . إذ من الناس من يشبه الحياة بأنها شر خالص ، ولكن الرشيد من الناس لا يمكن ان يسلم بمذهب التشاؤم الشرير . والتسليم بأن الحياة شر انما هو استكانة للمرض وبلادة للعقل وتشاؤم يفتش أسرار الوجود ، وما الحياة إلا التفاؤل وما التفاؤل إلا الحياة — والتشاؤم إيمان مستكبر ، والتشاؤم كمثل الذي لا يعبأ بغذاء صحي وانما هو يعكف على الخمر يعاقرها ويقبل على كأس يصب نفسه فيه لتورده موارد التلف والآلام ، وتلهب في نفسه الحزن والملل وتثير سخطه الدائم — وكذا يتولد الشر في الحياة كما يتولد الإيمان ، ولكن قليلاً من الادراك يجعله يميز دائماً ويفرق بين الخير والشر — وان الخير هو العنصر الفعال في طبيعة الانسان ، وان مثل الخير العليا كانت دائماً موضع تقدير الانسان في جميع العصور والأوطان ، انه يحب الخير ويضحي من يبذله على حياته

وكما تساءل تاجور عن النفس وعن الشر وتحدث فيهما ، فقد تساءل عن الخير وعن الفضيلة الكامنة في الطبيعة البشرية وأجاب : —

(١) صفحة من ذكريات تاجور كتب يوم فقد أولاده وزوجه في بضع شهور

« عندما يأخذ الانسان نفسه في بسط نفوذه على نفسه ، وعندما يعرف حقيقتها ، ويدرك انه أعظم قيمة مما هو عليه ، عندئذ يكون الانسان قد هيأ نفسه لمعرفة كنه ضميره الخلقية ، فيعالج ما قد ذاق اليه ، ويسيح تطلعه أكثر فرقاً من نفسه ، فتتغير نفسه تغيراً جديداً ، فتقبل على انقلاب يدرك به الحياة ذات قيم جديدة فتحل ارادته محل رغبته ، لأن الارادة ليست رغبة الفرد ولكنها رغبة في الحياة الشاملة التي لا تحد حاضرنا غير جزء يسير منها غير لا يمكن لتقديره أن يلم بعرضها كله ومن هنا يشتد النزاع بين رغباتنا وبين ارادتنا ويثور النضال بين الرغبة فيما تؤثره حواسنا من قيم وبين الارادة المستقرة في سويداء قلوبنا ، عندئذ يبدأ التمييز بين ما نحتاج اليه في حياتنا حقاً وبين ما هو خير محض مما نتوق اليه نفوسنا المتصلة بالحياة الاخرى ، ولهذا تنشأ حاسة الخير في حياتنا من وجهها الذي يظهر الحق ويربط حياتنا بمجموع الحياة ، هذا الوجه الخير هو الذي لا يقصر عنايته على ما يحوطنا من حضر ، بل ان عنايته لتتناول ما هو خارج عن حاضرنا ، وربما شملت عنايته حياة لم يقدر لها وجود بعد ، والانسان الحكيم يشعر بهذه الحياة الاخرى التي تتهيأ له والتي لم توجد بعد ، بل إنه يحس بها أكثر مما يحس بالحياة الدنيا التي يحياها ، ولهذا نشأت عند الانسان فكرة التضحية بنفسه عند ما يلبي نداء يدعوه الى ذلك فيقبل مضحياً بحياته في سخاء في سبيل مستقبل لم يره ، وهو بهذه التضحية يصبح عظيماً لأنه أدرك الحق وبلاه سخياً كريماً . وعلى المرء ان يدرك هذه الحقيقة مهما بالغ في الانانية اسرافاً . وعليه ان يخفف من حدة عواطفه ورغباته بأن يكون خير الخلق : لان قوتنا الروحية هي ذخيرتنا التي ندرك بها ان الحياة ليست ثوباً مهلهلاً يضم أشتات الرقع ، او انها بالامس الهين نجاءت الى الوجود دون قصد او هدف جليل كريم ، وثمة احساس خلقي ندرك به صلة الحياة الفانية بالبقاء والخلود ، وان هذا الاحساس ليهبنا القوة لندرك ان للنفس استمراراً موصولاً مع الزمن ، وانه ليس من حق الفرد أن يعيش لنفسه فقط . ان الانسان لأكبر مما يظن في نفسه ، فهو ليس ملكاً لذاته ، وانما هو حق لافراد لم يدعوا في شخصه بعد ، وقد لا يقع في حسبانه ان يعرفهم يوماً ما

فتاجور يرى ان الانسان ملك الاجيال المقبلة فقد يؤثر صلة في حياتهم ، وهو في حياته الروحية موصول ببقاء خالد يدركه ويحسه ، فكما ان للانسان شعوراً بروحه الجامعة الكبرى التي تقع خارج شخصيته ، كذلك له شعور بروحه المستقبلة التي لا يحدها وقته

ويفرق تاجور بين حياة الانسان والحيوان ، فيرى في حياة الانسان سمواً وادراكاً وحرية في تطلعه الى الاتصال بالحياة الاخرى وفي ادماج نفسه بالاجيال المقبلة بينما يرى حياة الحيوان

« إنما تدرك ذاتها من طريق الغذاء واشباع شهواتها ، وان غايتها النهائية هي ان تلبي غرائزها ، وان تحس أنها تعيش لادراك نهمها . فمعرفة الحيوان نفسه انما هي وعي محدود ضمن دائرة لا تسع غير الشعور بالذات وغرائزها وحدها » (١)

والبذل والتضحية خلق انساني كريم يمتاز به الانسان وحده دون غيره من الكائنات ، وما من مخلوق إلا ويتملكه هذا الخلق بقدر . ولم يخلق بعد الانسان الذي لم يضح بشيء من رغباته الجامحة في سبيل شخص آخر او جماعة او اسرة . وليس في الدنيا من لم يسعده هذا الشعور الساحر ولو مرة واحدة . انه شعور يخلق المسرة التي تبعث النفس عند البذل وعمل الخير والتضحية من أجل الآخرين ـــ فالانسان حيوان نبيل يسمو بهذا الخلق الكريم عند ما يدرك انه ليس كائناً مبتوراً عن الجماعة وانما هو موصول بها ـــ ولهذا فهو حيوان عظيم حقاً . والنفوس الشريرة لا مناص لها من ادراك هذه الحقيقة عندما ترتكب الجريمة فهي تشعر بألم أول بقية من الانسانية متيقظة ، وهذا الخلق الذي يقرر الحقيقة هو خلق يتصل بالخير ، لانه اعتراف بالحق صريحاً ، فلا بد من الخلق في جميع مواطن الحياة حتى في المواطن الشريرة منها ، فعصابة اللصوص يجب ان تكون على شيء من الخلق ليتماسك بعضها ببعض لتكون جماعة لها وحدة تمكنها من سرقة الناس وتمنع فريقاً منها ان يسرق الفريق الآخر . فلكي تنجح بعض الاعراض الساقطة يجب ان تتخذ من

(١) من محاضرة القاها بأميركا بعنوان : الولادة الثانية »

الخلق الكريم مظهراً وحدة ، وكل شيء يمكن أن يخلق ولكن خلقاً واحداً ليس للانسان من طاقة على خلقه وهذا الخلق هو التضحية والانانية ، والخلق هو الذي يبعث فينا المكروه والشر حتى كان الطمع والانانية في تكوينه وهنا يصبح الانسان أدنى الى الحيوان يقوم بالغريزة لا بالاخلاق والكرم والخير . ولكن الانسان لن يجرد من خلقه اطلاقاً . ولكنه قد ينحرف عنه ، فليس هناك من شر خالص ، لأن الشر انما هو خير منحرف عن وضعه ، وليس هناك من كذب خالص ، لأن الكذب انما هو صدق منحرف عن وضعه ، وان لم يبصر الانسان كان أعمى ، ولكنه اذا أبصر الشيء فأدركه على غير ما هو عليه كان مبصراً بصراً غير صحيح . والانانية في الانسان ليست شراً خالصاً ، لانها الصفة الاولى لحب الحياة وأغراضها ، ولكن الشر ان تنحرف الانانية الى وضع مهلك يهدر كرامة الانسانية وينحرف بها عن أوضاع الحياة فالشر . ولابد أن تقابل الانانية بشيء من الخلق والغريزة والكبح وحسن السلوك — ولكن الرجل الاناني يبقى التاعب شواليات في غير ملل ، وهو بهذا الشقاء المرهق يرقى نفسه ويضيع مواهبه ، وحياة الاناني حياة ذات وحدة محدودة . وأما الحياة الجامعة الحقة فلها معنى فسيح لمن يحيا من الناس للفكرة أو للوطن أو لخير الانسانية — وان الالم ليتضاءل بقدر سعة هذا الخلق النبيل ، وانك لكي تعيش عيشة الرضى والخير ، يجب أن تحيا للجميع وان تبذل لهم وتضحي من أجلهم . والشعور بالمسرة والقوة قاصر على الفرد لنفسه ، وأما الخير فموصولة مسرته ولذته بالفرد وبسعادة الانسانية . وقد تنعدم قيمة اللذة وقيمة الالم وبهذا الحياة المضحية في سبيل الجماعة ، ولقد ضرب الشهداء المثل عالياً في هذا ، وفي ابتكارهم الثابت برهنوا على أن الخير الانساني تنعدم فيه قيمة اللذة ويضني الالم . ذلك لانهم قد نسوا الانانية وأنكروها ، فحال ما يترتب على الانانية من مشاعر اللذة أو الالم . وان تاجور ليرى في هذا أن مستويات اللذة والالم في مستوى الانانية ، كانا حملين ثقيلين لا يقوى عليهما عند ... ، وفي ... في مستوى الخلق خفت أوزانهما وهانا على من أنكر أنانيته .

ولكي نحيا حياة السمو والخير يجب أن نعرف قدر نفسك وتدرك كنهها في الحياة وما بعد الحياة ، ولقد أشار تاجور الى أن تعاليم بوذا تتفق مع تعاليم المسيح في هذا فقال « نحن ندرك كنه النفس من قوة ... قبل بادراكنا ... وتقديرنا الخاص لجموع الحياة ، وان تعاليم بوذا تهذب هذه القوة الخلقية حتى تمس غاية التهذيب فنعلم أن نشاطنا وجهودنا ليست محددة بأوضاع النفس الضيقة ، وهذا هو دستور مملكة السيد المسيح ، الذي يقرر السمو في تحرير النفس من الالم والمسرة » .

« ويوم أن أنشأ بوذا السبل التي يهتدي اليها البشر من البؤس ، استقر عند هذه الحقيقة ، وهي انه عندما يصل الانسان الى نهاية مبتغاه باندماج ذاته في البشرية العامة وبافناء فرديته في الجماعة يكون قد تحرر من عبودية الالم » . « ولقد لبث أحد طلابي في شك عندما حاورني فقال : هناك حقيقة ليس لانكارها من سبيل وهي « اني أشعر بوجودي » وان « أنا » ذات في كل منا تبحث عن مستقر لها في كل فرد . ولقد أجبت طالبي « بأن شخصية الفرد « أنا » قد يصيبها شيء من اللافردية ، أي من الحياة الجامعة العامة . ولهذا يجب أن نوفق الى حد وسط بين الفرد وبين هذه الحياة الجامعة العامة ، وان من المحتم علينا أن نفهم أن هذا الحد الوسط انما هو الصلة بين الفرد والجماعة » . « يجب أن نذكر دائماً أن فرديتنا مجبولة بطبيعتها على البحث عن الجامعة العامة كي ... ، فالجسد ... حتى لو قصرت غذاءها على ... ، وتفقد ... وظيفتها اذا لم تبصر غير نفسها » .

« ان أعظم مسرة يمكن أن يدركها الانسان انما تكون في شعوره بعظمته التي تنشأ عادية في اندماج كيانه بكيان الجماعة . وقد يستحيل على الانسان ادراك هذا ، إلا اذا فهم ناموس الجماعة ، وكلما تعارضت رغباته الشخصية مع هذا الناموس العالمي قاسينا عبء الالم وكنا أشبه بالاموات » . « وقد مر على الانسان حين من الدهر كان يلتمس فيه من هذا الناموس العالمي أن يمنحه مزايا خاصة ، وكان يتوقع من الطبيعة أن تخضع لهواه وتسير بحسب رضاه ، ولكن الانسان وقد أصبح أكثر علماً وثقافة ، يرى أن لا سبيل لاغفال سنن الكون ، وقد أصبحنا بهذا اليقين أقوياء حقاً ، لأن سنن الطبيعة ليست منفصلة عنا وانما هي موصولة بنا ، فهي الناموس الذي نسير على هديه ومقتضاه ، والقوة العامة التي تتمثل في هذا الناموس هي هي القوة التي تمدنا بقوانا ، ولسنا لنستمد منها اذا صغرت نفوسنا فأصبحت في سبيل الحياة كعقبة ، ولكنا نستمد منها قوة اذا كبرت نفوسنا وكنا يداً مع الجماعة ، وكنا قوي ... من النوم كنا أكثر قرباً الى الطبيعة » .

« اننا في هذا العصر العلمي لا نزال جاهدين في اثبات حقنا في عالم الروح ، واننا لنعلم ان جميع ما أصابنا من نقص وآلام انما هو ناشئ عن عجزنا عن اثبات هذا الحق الشرعي »

« ما زال الانسان يشكو التعس والافتقار الى السعادة ، على الرغم من انه استطاع ان يخضع الطبيعة لتفكيره وعزمه ، كأن شيئاً ورث في طبيعة الامور يأبى إلا ان يجعلنا تعساء . ان الروح الجامعة في ارتقائها لتخضم فوق هامتنا تاج السعادة ، ولكن الروح الفردية التي فينا تأبى هذا التاج وتنكره . ألا ان الاثرة والانانية هما اللذان يدفعان بحياتنا الى مهاوي النزاع والتنافس ويهدمان كيان المدنية والمجتمع ويجلبان التعس والفاقة للبشر ، بل إن الحياة القائمة على الانانية والاثرة لتضع الامور في مأزق مضطرب لا يقوم له من النظم إلا ما كان له تكافؤ من الظلم والاعتساف ، وعندئذ يرضخ الانسان لدساتير قاسية كأنما إنما فرضت لجهنم او لسكان الجحيم ، وعندئذ تدق عنق الانسانية وتذل وتضمحل كرامتها الى أدنى الهاوية ، فلكي تكون أقوياء كان لزاماً علينا ان نسلم للقوى العامة المهيمنة على الحياة ، ويجب ان نعرف من تجارب الحياة ان هذه القوى العامة هي ملك لنا ، لهذا كان علينا اذا أردنا ان نكون سعداء ان نخضع ارادتنا الشخصية لجلال الارادة العامة ، وان نشعر أنفسنا بأنها انما هي ارادتنا ، فاذا ما سمونا الى هذه الحال من الائتلاف بين المحدود فينا من ارادة وبين ما هو غير محدود من الارادة العامة ، أصبح الالم والصبر عندنا الفاعلية والتكميل الوفي الذي يضمن لسرورنا تقدم الخلق »

« وان أثمن درس يمكن للانسان أن يستخلصه من حياته هو ان ليس من ألم في الوجود الا وفي مكنة الانسان ان يحور منه خيراً وصلاحاً ، وان يحيله الى تعسه مسرة وشعوراً مبتهجاً . على اننا لم نحمل مجمل هذا الدرس كل الضلال ، اذ ليس من انسان يبغي قلبه بالحياة ويرغب بمحض ارادته في حرمان نفسه حتى مذاقة الشعور بالالم والاحساس به ، لان هذا الاحساس ذو حق له يؤهله لان يكون انساناً »

وليست حرية الانسان في ان يتحاشى المتاعب والآلام ، ولكن الحرية في ان يوجه الانسان هذه المتاعب وجهة خير وصلاح ، وان يجعل الالم عنصراً من عناصر مسرته ، وما كان هذا ليكون الا عندما ندرك حق الادراك ان النفس الفردية ليست هي المعنى النهائي الذي تنشده الحياة من في ذاتها وفي دخيلة وجودنا الساكن انما هو المعنى الكوني الخالد الذي لا يهاب الموت ولا يرهب التردي ، والذي يستعذب الالم ويباهي به مدة آخر الحرية ، وجهاً من جوانب الحياة المبهجة . وان من أوتي هذا اليقين لم يدرك ان الالم هو تروة الفاقة التي يفتقر اليها وجود الاثرة ، وان الالم هو الذي يخلق منا العظماء الذين يصيبون من التكامل الذاتي مكاناً سامياً ، وانها لعظمة روحية ان يقف الانسان فوق نفسه ، وان يدرك انه ليس بمنزل يعيش كلا على الحياة ، وانما هو يدفع لما يدرك من الحياة من قوة وحكمة وحب ثمناً غالياً ، وان ثمن هذه المعاني انما هو الالم ، وهو الذي يفتح للنفس مدارج السمو والتكامل من طريق الالم وحده ومنه تتجلى له اسرار الابدية . الانسان من لم يجد في نفسه قبولاً حسناً لاستقبال الالم ، فهو الذي سيهوي الى حضيض الفاقة والاقتراض . ويجب ألا نحسب الالم نستخدمه في ارضاء مطامعنا الذاتية ، انه نذير لنا ونتيقظ له بالعدة من هون لنا منه ما نستكن به غمرة اليأس والتعس ، يجب أن يرتفع الالم عن كل يأس أو تعس لنفسه ، ويعود ببني الانسان يرتفع بالانسانية الى قدرها ، انه العذراء الرؤوم التي وهبت جهودها للكمال والخير ، لن تواجه عن هنيهة الاستكانة ، وتشق حجاب الظلام سافراً عن وجه مشرق متجلٍ فيه منهج الفرد العليا (١)

وتاجور يرى أن في ضميره رسالة يجب ان يؤديها ويعلنها للناس أينما حل ، كأنه المبعوث للكافة بشيراً يؤمن ان لهم فيها الخير والسلام والامن ، وهذه الرسالة تدعو الى الوحدة الروحية العالمية ، تمهيداً للاخاء والسلام الانساني واقامة مدنية فاضلة تسير العالم جميعاً

وفي محاضرة له ألقاها في اميركا على جمع حافل من العلماء والساسة وقادة الرأي يبين

(١) ملخصة من الفصل الثالث « سدهانا » لتاجور

ومسائله، ويبسط آراءه في حديث مشبع جمع بين العلم الحديث وبين فلسفة الشرق القديم. فأبحاث علم النفس الاجتماعي تقول بوجود «الضمير العالمي» و «الضمير الفردي» وأيهما يجب أن يغلب في الفرد وفي سلوكه في الحياة، وتاجور يبسط دعوة الشرق فيقول في هذه المحاضرة [1] :

«تتسع رقعة الوعي في الفرد بالاتصال بين ارادة الفرد وبين ارادة العالم»

ويقول بوجود وحدة يسميها «الواحد السكلي اللانهائي». وإن إرادة الفرد لا تبلغ مناها من الاندماج في ارادة العالم ووعيه، الا اذا وجد الاتصال الدائم المستمر بين الفرد وبين هذا «الواحد السكلي اللانهائي».

ولا شك في ان تاجور يريد بهذه الدعوة ان يُغلّب الضمير العالمي على الضمير الفردي في أعمال الفرد وفي تفكيره وفي عواطفه واتجاهه. وهذه النظرية وان بدت حديثة يدعو اليها علم النفس في عهده الاخير، الا ان تاجور قد اكتسبها من صميم العقائد الهندية القديمة المدونة في كتبه المقدسة [2] — فيقول تاجور :

«ان السبيل الاسمى بين ضمير الفرد وضمير الجماعة في الحياة دائماً ولا شيء غيرها هي حقيقة كامنة في عالم الاشياء والناس وانه لا يمكن [illegible] من [illegible] البقاء، لا من طريق التنازع ولكن من طريق التعاون، لا من طريق اجتياح القوى للضعيف ولكن من طريق [illegible] جميعاً لايجاد الحياة والامن والخير»

بهذه النظرية يهدم تاجور نظريات تنازع البقاء وبقاء الاصلح، وما الى ذلك من أفكار هدامة نهضت على القوة والمادة، وآمنت بالانانية والاثرة وحدهما. ولكن تاجور يعود الى شعره الحالم فيقول مترنماً :

«تلك الوحدة هي [illegible] في العالم [illegible] وحقيقته [illegible] هو [illegible] والفرح والحياة والتعاون في [illegible] بين [illegible] وبين الواحد السكلي اللانهائي»

ولكن تاجور لا ينكر على الانسان أنه قد خلق في حاجة الى غيره، وأن لا بد له من عناصر يقيم بها حياته، ولا سبيل الى هذه العناصر الا بالاستيلاء، فيقول :

«ان هذا الاستيلاء هو [illegible] في [illegible] هو [illegible] وحرية [illegible] الانسان من [illegible] وهو [illegible] ضروري لأن حاجات الانسان [illegible] لا [illegible] الانسان [illegible] في ابداع [illegible] من [illegible] وهو لا يستطيع [illegible]»

(١) محاضرة [illegible] أمريكا [illegible]

(٢) [illegible] Chhandogya

هو ابداع وحرية ، وأما الحياة فيا هو كائن أي المسجون بجسمه ، لأنها حياة ليست منه ، ومعناها إطلاق يد الطبيعة لتحقيق ، كأن نظم مسخرة لا ارادة لها فتصبح خاضعة لقانون الانتخاب الطبيعي ، الذي يقرره داروين — فقانون داروين مقلة لا تشرف الحياة ولا ترفع من قدرها

ويرى تاجور غير ما يرى داروين فيقول :

« ان اسمى في سبيل الحياة عمق يدعو الانسان ان يكون مفكراً ؟ مهما هي خاضع لقانون الانتخاب الطبيعي ، بل يجعله حراً غير مقيد بأوضاع قاسية تدعو الى الانانية والاثرة والفناء والحياة هي نبدعه بانفسنا بتفكيرنا ، ومعناها أن نحيى فيها هو لنا . ويتحول العالم شيئاً فشيئاً اذا ما فهم هذا الوضع ، لانه مكون من استجابة تحيى فيتحرك ويتحرك كما ويوجه توجيها كما يريده ، فلا يقنع الانسان بالعالم الذي أعطى له ، واذا يرى الانسان ان جعل العالم صورة من عمله وجهده ، وهو لهذا يصبح قوة تركب وتحلل وتشخص ، وتدرس طبائع الاشياء ، وتعالج كل كائن علاجاً ميسراً — ولكنه لا بد ان يصطدم بالارادة الطبيعية ونظمها ، وفي هذا الصدام يكون المحرك الدائم لتفكير الانسان وحريته — هو صدام مادي تأبى طبيعة الانسان ان تؤمن به ، لانه قائم على القدرة ، ولن تكون للقدرة الغاية في الحياة . يحاول الانسان في عصر همجيته ان يبدل نظام الاشياء باعماله السحرية وباخضاع القوى الطبيعية للجن في تعديل العالم حسب رغبته — وهذه المحاولات الآن تروح لانسان الحرية لكن تصطدم دائماً بما تريد الطبيعة ان ترغمه عليه من نظم وترتيب لم ترضخ لها رغبات الانسان . فالانتخاب الطبيعي هو قانون صارم لم يرضه الانسان لانه لا يؤمن به لمنافاة طبيعة الحرية التي في نفس الانسان — وكلما نمت هذه القوانين الطبيعية على الانسان ظهر ضعفه واتجه الى عوالم الخيال حيث ينعم بالاشتراك الدائم مع آلهة السحر والاحلام ، فظن انه قد عثر على حجر الفلسفة وستولى على اكسير الحياة كأنه قد وجد خلاصاً وتمنى منفذاً من قيود الحياة الطبيعية الضيقة الحدود

ولم يستطع الانسان بعد ، أن يجد باباً ينفذ به الى عالم آخر ، يهيئه كما يريد ، من طريق اخضاع المادة وتحويل انتخاب الطبيعة باعماله السحرية وبالخرافات التي استولت على تفكيره وعقائده الا أنه ما فتئ يلتمس هذا الباب منفذاً لحريته ، ففكر حتى سخر قواه الفكرة في ايجاد العلوم التي قد تستطيع منافسة الطبيعة واخضاع الحياة لنظامه وحريته

والعلم في نظر تاجور : —

« عامل في سبيل حرية الانسان ، والعلم يقود دوله تمرد الانسان ضد الطبيعة ، وهو الذي يعين فيضع بين يدي الانسان تعيين الطبيعة السحري ، وهو الذي يحررنا من عبودية الاشياء . . . ولكن المدنية الحديثة قد كسبت العلم مظهراً مادياً ما دام قد تحول في تسخير قيود المادة ليعمل جاهداً في الاقتناع بهذه القيود الموجهة ، وعن الطرق تسخير قيود المادة الى الاقتناع بما يشبه حالة الفاتحين الذين يغزون البلاد يشتغلون بالنهب والسلب حتى اذا ما انتهب لهم المال بمكاسب الامر فاصبح أولئك الغزاة السالبون هم أنفسهم مسؤولون عن الامن والسلام ، فالعلم يغزو ويحطم منافذ المادة ولكنه يهدأ أخيراً ليدعم البقايا الباقية

وتاجور بهذا يعلن في وجه قادة المدنية الغربية ، أن التقدم العلمي وحده لن يجدي الحضارة البشرية ما دام مسخراً للتخريب واخضاع الحياة — ولكن تاجور غير يائس من العلم لأنه قبس من الحرية ، وجهد قد يؤدي الى خير محقق للبشرية ، فيقول : —

« إن العالم هو الآن اليوم في مد غزوته فهو الذي هو كطفل في سورة من غضبه ومن استطالته نكل مجهول ، فهو يتصدى ويتحدى ويتجرى ما يجب وما لا يجب أن يكون مطابق طبيعة الحياة ورغبات الانسان . هو عاز جبار يسلب وينهب ويخرب ، وسيستقر عندما ينسجم مع روح الانسان ... لا يداع ... خاص به تنسيق قوى الطبيعة منسجمة مع روح الانسان تمده بالضرورات في أعز جهد وأسمى مسعى »

فتاجور يناقض دارون ، ويرى أن الوسيلة الى حقيقة ما يريد ليست الا ضعفاً لا يعرف الحياة الانسانية بل يتغلب عليها الحيوان الكامن في طبيعة الانسان الحيوان الذي يدفع الانسان الى الأخذ دون العطاء ، الحيوان الذي يسود مجتمعه المدنية فيجعلها خاضعة ذليلة لشهواته وأنانيته

على أن تاجور لاينكر حياة الحيوان في الانسان ، فهو يعترف بالثنائية القائمة فيه وجمعه بين عالم الطبيعة وعالم الروح ، عالم الحيوانية وعالم الالهية

ولكنه يأبى أن يتغلب الحيوان الذي في الانسان على الاله الكامن في روحه وقلبه والا ساد الحياة نظام الحيوانية الذي من شأنه أن يُغلِّب القانون الطبيعي الصارم الذي يقرر « تنازع البقاء وبقاء الأقوى »

ويقول تاجور في هذا : —

« وهنا نصل الى أبرز ثنائية في الانسان ، وهي جمعه بين عالم الطبيعة وعالم الروح ، فالشر الذي يمس الانسان الطبيعي هو الألم ؛ ولكن الشر الذي يمس الروح وهو شيء آخر هو الخطيئة ذلك لأن الخطيئة قد لا تعني الألم الا أنها شر على كل حال ؛ وذلك كالمس او العرج الذي قد يصاب به الجنين وهو بعد في أحشاء أمه فليس المس ولا العرج بخطر عليه ما ظل جنيناً في الاحشاء ؛ وأما اذا خرج الجنين الى العالم كان هذا ذلك شراً أي شر ، والجريمة هي شيء ضد الانسان وأما الخطيئة فشيء ضد الالهي الذي في الانسان »

وتاجور يريد بهذا أن يضرب مثلاً للروح فيقول : —

« انها في هذه الحياة التي تحيط بها حياة الحيوان ، وهي كالجنين في رحم أمه ، لا تدرك ولا تستطيع أن تفرق بين الحق والباطل ولا بين الخير والشر ما دام قد ساد عليها الحيوان الذي فينا ، فكأن حياة الروح الآن هي حياة تنطوي تحت نظام حياة الاجنة ؛ وستبقى هكذا حتى تتهيأ لها « الولادة الثانية » حيث تخرج الى عالم اللانهائية ؛ عالم الروح الخالص من الحيوان ، على أن هذا الحيوان هو الذي يشجع الروح ... يضايقها من شرور ، حتى تحطيم الحدود الضيقة التي حددتها الطبيعة ، فهي تبحث دائماً عن مخرج ... ألا يشبه الفرخ في البيضة ... حين يهم بكسر هذا السجن من البيضة المحصور ... حتى يخرج الى عالم آخر أفسح من سجنه ؟ وهل يظن هذا الفرخ أنه أحس بدوافع ومنازع تدفعه الى الخلاص من سجنه الى عالم أفسح منه حيث يكشف وجوده ... جديدة لا يستطيع ان يدركها ... وهو قابع داخل جدران هذا السجن الضيق ؟ . وهكذا الانسان في جوهره ؛ مهما تحقق ثنائية حدود ... هنا ... يبقى ... ثقة غريزية عميقة بأنه انما يخرج من رحم الطبيعة ليدخل عالماً من الروح حيث ... هناك ... يشترك مع اللانهائي وحيث يتحد ابداع الانسان وابداع الله في خط واحد من التذوق »

وأما الحيوان الذي فينا فيقنع بأن يحصر غايته طبق ما تريده الطبيعة من نظام تنازع البقاء

« فهو مؤمن بتاريخه ، يعيش ويحسن ثم يموت ، هو قانع أبداً بهذا الطعام ... فلا يغلب ... ولا

تحرراً ، ولا يدمر بضيق هذا العالم المحدود ، بل انه يأبى ان يهدم الجدران التي قامت حول سجنه ، فهو محروم من الطمع ومن التساى والشعور بالحياة نارة فكأنه في معتكف الروح حيث المجال الروحي الاسمى »

ومن طبيعة هذا الحيوان أن يكون جشعاً الى آخر غاية من الجشع ، أنانيّاً حاد الأثرة

« هو لا يخجل من شهواته لانه صادق فيها ، في شهوات تختص بحياته الكونية النهائية ، وهو ليس قاسياً فيما يبدو منه من ضروب القسوة ، ولا هو جشع فيما يبدو منه من ضروب الجشع ، لان هذه كلها هي أغراض نهائية في حياته ، بل هي غاية الحياة التي يتمسك بها »

ولا يشعر الانسان باحتقار هذه الشهوات الاّ اذا اتصل بالشيء الالهي الكامن في روحه ، ولن يبلغ هذا مادام يعيش لنفسه دون أن يتصل بالعالم ودون أن يسخر قلبه للضمير العالمي . ولهذا يجب أن يرفض نظام تنازع البقاء وبقاء الاقوى والاّ كان جاهلاً بأسرار الحياة غير واثق بقوة الروح الالهية التي فيه والتي يجب أن تسود المدنية جميعاً

ويعجب تاجور من الانسان اذ أنهُ قد ناصب الحياة العداء لأنهُ جاهل بها، غير واثق فيها

« اذا نظرنا الى الانسان من وجهة الطبيعة ، أي من الناحية الحيوانية التي فيه ، رأيناه كأنما جاهلا ، لانه لا يثق أبداً بالعالم الذي يعيش فيه، وانه قد ناصب عالمه العداء والحرب منذ فجر تاريخه، ويبدو الانسان من تلك الوجهة الطبيعية ذاتها كأنه مشغوف بأذى نفسه ، ومن الصعب ان ندرك كيف ان سيرة الانتخاب الطبيعي تغفل عن تلك الناحية التي تتسرب منها عناصر خطرة تشجع الانسان على تحطيم دعائم العالم الذي يعيش فيه »

ويشير تاجور الى النزاع القائم بين الروح والجسد فيقول : —

« ان الرسالة الاولى للروح تقع عادة على الانسان بضرورة الانفصال عن الطبيعة الاولى ، عن الحياة الحيوانية ، التي تحاول الروح ان تستأصلها ، ولكن هذا هو الوجه السلبي من المسألة ، حين تشتعل نيران الثورة في طلب الحرية تنقلب تلك الحركة في سبيل الحرية الى فوضى ، الا أن معنى الثورة الحقيقي ليس في تحدي النظام ، ولكن في تحريره من قيود الظلم ، فولادة الانسان في عالم الروح لا يعني استئصال صلاته بعالم الطبيعة ولكن معناه تحرير هذه الصلات من كل تحكم ، وادراكها الادراك الحق »

فتاجور لا يريد أن تهدم الروح عناصر الحيوان ، ولكن يريد أن تتعاون الروح مع الحيوان في ابقاء الحياة كما يجب أن تكون ، بعيدة عن التشاؤم والكفر بالعالم ، والاّ انسلخ الانسان قطعة قائمة بنفسها منفصلة عن الوجود وعاش عيشة الزهد والتمرد ، ومن هنا نشأت طائفة المعتزلة التي تعتزل العالم والتي تعيش في أحوال غير طبيعية بعيدة عن أحكام القوانين . إن هذا العمل هو حرب ولا شك على الحياة نفسها، وتاجور لا يقر بهذا الوضع مما انسابت اليه عقائد الهنود من طوائف الزاهدين والنساك الذين كرهوا العالم واعتزلوه ، ويرى أن هؤلاء قد ثاروا على الحياة وأنهم دمروها كما تفعل نيران الثورة حين تهتاج ، طلباً للحرية تنقلب الى فوضى مدمرة ، فهو ينعى هذا العنف ويقول ان ماحدث انما كان نتيجة للتشاؤم وجهل الانسان بأسرار الروح ومطالب الحياة التي تجنح الى العدل والقسط دائماً